أولويّات في دراسة العلوم الإنسانيّة

السيّد جعفر المرتضى العاملي

يتعرّض الكاتب في مقاله لأولويات في دراسة العلوم الإنسانية ويورد بأدلّة عديدة تقضي بأنّ العلوم الإنسانية رغم محاولة البعض على أنّها لا يمكن اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق للكلمة لأنّها محض تعاليم، لا بدّ من قبولها، والتسليم بها دون تمحيص وتحرية علوم قيّمة علمية.

ويردّ الكاتب ماسجّله البعض في هذا المجال على العلوم الإنسانية، ويقول إنّ مصدر المعرفة في تلكم العلوم هو الوحي الذي ينتهي إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فمن الطبيعي أن تختلف ماهيّتها عن سائر العلوم الحسّية المعتمدة على المشاهدة والملاحظة والمقارنة التي توجب من خلال تراكم الإحتمالات فيها درجة من الظنّ الذي لا يفيد اليقين.

ويدعو الكاتب في مقاله أن نركّز في دراستنا على الأمور التالية:

أوّلاً: أن نطرح المفاهيم العقائدية، وكلّ العلوم الإنسانية بطريقة تجعلها مفيدة في بناء شخصيّة الإنسان بكلّ أبعادها، وخصائصها، ثمّ توجّهاتها وطموحاتها.

ثانياً: دراسة النصوص القرآنية والرّوايات بنظرة جديدة، وعقلية جديدة.

ثالثاً: التأمّل في الشكل والمضمون.

رابعاً: انّ التربية والتعليم توأمان.

خامساً: هيمنة السياسات على الشأن العلمي؛ إذ يؤكّد الكاتب في هذا القسم أن يبتعد المتتبّع في العلوم الإنسانية عن أهواء السلطة لا سيّما إن كانت ضالّة.

سادساً: العلم في مجال التخطيط والتنفيذ ضرورة لا مندوحة منها.

وأخيراً يركّز الكاتب على دور البواعث الفرديّة في الإنجاز العلمي.

التمهيد

قد يحلو للبعض أن يدّعي: أنّ العلوم الانسانية لدى المسلمين، لايمكن اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق للكلمة: لأنها محض تعاليم لابدّ منها، والتسليم بها دون أن تخضع للمناقشة، ودون أن يكون للتجربة الحسّية دور في معرفة غثّها من سمينها وتمييز صحيحها من سقيمها.

ونقول:

إنّ هذا الكلام ليس له قيمة علمية، ولايستند إلى ركن

Page 21

وثيق، وذلك لأنّ هذه العلوم، وإن كانت لدى المسلمين، ليست على حد علم الفيزياء أو الرياضيات مثلاً بحكم مالها من طبيعة خاصة، ولكنها لاتقل عنها من حيث قوة اعتبارها وقيمتها العلمية وإمكان الاعتماد على ما رسم فيها من ضوابط وقرر من قوانين. وذلك لأن العلوم الانسانية ـ كما هو الظاهر من اسمها ـ إنّما تعالج قضايا الانسان الفردية والجماعية وتتدخل في بناء شخصيته الانسانية والاجتماعية، وتساهم في رفع مستواه، وتذليل العقبات أمامه وحل المشكلات التي تعترض طريقه في مسيرته الحياتية التكاملية.

فإذا كان مصدر المعرفة في هذه العلوم هو الوحي الذي ينتهي الى اللّه سبحانه خالق كل شيء ومدبره والمطلع على حقيقة الانسان، ثمّ على كل الحقايق والدقائق في هذا الكون المحيط به وهو الأعرف بخصوصياته ومزاياه، وبكل علاقاته وارتباطاته عما ومن في الوجود إذا كان كذلك فان هذه العلوم الانسانية الصادرة عنه قادرة على تقديم التفسيرات الحقيقية لكل ظاهرة ولكل حالة، ثم تقديم الحلول والضوابط الدقيقة والصحيحة لكل مشكلة ولكل حركة مهما كانت.

وعلى هذا الأساس فان تلك العلوم التي، تعتمد في رسم ضوابطها وتقديم نظرياتها أسلوب التجربة الحسية، ثم الملاحظة والمقارنة، التي توجب من خلال تراكم الاحتمالات فيها درجة من الظن الذي قد يرتقي أحياناً إلى الاطمينان المهدّد دائماً بالزوال تبعاً لتقدم العلم، وتوفر وسائله واكتشاف المزيد من الحالات ذات الخصوصيات المتميّزة ـ نعم إنّ هذه العلوم ـ تصبح في مهبّ الريح، حينما يتطرق الشك إلى معظم ماتقدمها من ضوابط وحلول، وحين تصبح عاجزة عن الاسهام في ترسيم صورة واقعية لحاضر الانسان، الامر الذي يعني أنها أعظم فشلاً وأكثر عجزاً عن رسم صورة لماضيه، والتخطيط لمستقبله بصورة دقيقة وصحيحة.

العقائد والحياة:

ونحن إذا رجعنا إلى العلوم الانسانية الاسلامية من أجل تحديد العلوم التي لها أولوية التقدّم في مجال البحث والعناية حيث لابد من تحديد هذه الأولويّات، لسببٍ أو لآخر فاننّا نجد: أنّ شأن العقائدي يقف في أعلى الهرم في هذا المجال، وذلك لأن الأمور العقائدية لاتختصر بانسان دون انسان، ولا بفريق من الناس دون فريق، وإنما هي شأن يخص كل فردٍ من بني الانسان ولايمكن لاحدٍ أن يدعي تفردّه في ذلك، أو أولويّته على غيره فيه.

ومن جهة أخرى فانّ الامور العقائدية ليست محض حقائق علمية جافّة ولامجرّد معادلات تشبه المعادلات الرياضية، أو الفيزيائية أو غيرها، يمكن لكل انسان أن يحتفظ بها في ذاكرته، أو يودعها في كتاب، أو في آلة التسجيل، أو في الكامبيوتر ليرجع إليها، ويستفيد منها وقت الحاجة.

كما أنّها ليست مجرّد حالة فكرية، أو تصورية خالصة، ومنفصلة عن سائر شؤون الانسان وحالاته.

وإنّما هي شأن حياتي عملي له حسّاسيته المتناهية، وله صفة الشمولية أيضاً، حيث إنّه يمسّ شخصية كل فردٍ من الناس وخصائصه ويلامس وجدانه، ويتصل بمشاعره وعواطفه ثم هو ينعكس على صعيد الواقع طاقة جبارة وموقفا رسالياً وسلوكاً رائداً، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى الجماعة.

ما نريده:

وهذا الذي ذكرناه من الشمولية والحساسية المتناهية يحتم علينا التعرض للشأن العقائدي على أنه علم ينبض بالحياة ويزخر بالحركة ويتصل بشخصية الانسان بكل أبعادها ومختلف مكوناتها، ثم على ما تتعاطاه وتتعامل معه وتتصّل به أو يتصل بها، من قريب، أو من بعيد.

فما نريده إذن... هو أن نبحث عن تلك العقائد التي تربط الانسان بكل ما حوله، ليستفيد منه في مجال تغذية فكره ووعيه ومشاعره وعواطفه، ثم في مجال تعامله وحركته وسلوكه ومواقفه.

عناصر لابدّ من توفرها

وما تقدّم يحتّم التركيز على الامور التالية:

الأوّل: أن نطرح المفاهيم العقائدية وكل العلوم الانسانية، بطريقة نجعلها مفيدة في بناء شخصية الانسان بكل أبعادها، وحالاتها، وخصائصها ثم توجهاتها وطموحاتها ولينعكس ذلك ـ من ثم ـ على حياته بكل مالها من شؤون، وما يتصل بها أو تتصل وتلتقي به، ولتكن شخصيته في تلوّناتها وفي صفاتها رساليّة رائدة، وليكون للآخرين من ثمّ أمثولة، وأسوة وقدوة،

Page 21

أمّـا إذا كانـت دراســة هذه العلوم على حدّ دراســة علم الرياضيات مثلاً، فإنّ هذا الانسان حتى وهو في قمّة نشاطه العلمي، واكتشافه للمزيد من الحقايق والدقائق، لسوف يبحث عن مكـوّنـات شخصيتـه الانسـانية في أمور عفوية، وغير مدروسة ولامتناسقة ولاهي مستندة إلى ركن وثيق وبرهان أو دليل وتصبح شخصيته التقاطيةً من هنا وهناك، ممّا يصادفه من حالات، ويواجهه من أزمات ومشكلات، ومما يمر به من أفكار ومفـاهيم وعادات، في البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة، وفي خلال صداقاته، وقراءاته، ومشاهداته.

الثّاني: إعادة قراءتنا للنصوص القرآنية، وللروايات المنقولة عن النّبيّ، صلّى اللّه عليه وآله، وعن الأئمة المعصومين، عليهم السلام، بنظرة جديدة وعقلية جديدة، وبطريقة علمية جديدة أيضاً، تنسجم مع التوجّهات، والدوافع، والأهداف العامة التي ألمحنا إليها آنفاً.

وذلـك لأنّ المشـاهَـد في قراءاتنا الفعلية للنصوص ـ أنّ الأكثر من العلماء والمحققين يعملون على حدّ أكبر قدرٍ ممكن من النصوص، لتفهم بطريقة معينة، ومن زاوية خاصة ومحدودة بحسب مايريدون التـدليل عليه، وتـأييده، أو الإزراء عليه وتفنيده، من دون أن يتعرضوا لسائر ما تتعرض له، أو ترمي اليه.

فهم إنّـما يعـالجـون قضايا تهمّهم ويتعرضون للبحث في مجالات، لايعـرفها، ولايدركها إلّا القليل من الناس، الذين نهجوا منهجهم ونسجوا على منوالهم.

الثّـالث: أنّه ليس من الضروري أن نصرف الكثير من الوقت والجهد في البحث عن فرق بادت، وأقاويل بانَ زيغُها وخطلها، وكثير منها أشبه مايكون بالتخرصات والأوهام، ولم يبق ثمة من يؤمن بها أو يعيرها أدنى اهتمام. كما أنّها لاتمسّ واقع النـاس، ولاتتصل بحياتهم، ولاتعالج أيّاً من مشاكلهم، التي يعانون منها.

في الشكل والمضمون:

وبعـد الـوصول إلى الأهداف المشار اليها آنفاً، وتحقيق النتائج المتوخاة على الصعيد الإعدادي فانه لابدّ في المرحلة التـالية، من ملاحـظة الضوابط الصحيحة في مجال العرض، سواء فيما يرتبط بالشكل، أو فيما يتعلق بالمضمون فأمّا بالنسبة ل :

الأمر الأول: وهو مايرتبط بالشكل، فإنّه لابدّ من تقديم حقائق العقيدة باللّغة التي يفهمونها بكل فئاتهم وطبقاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم، وهي لغة القرآن. وبتعبير أوضح: لغة الحياة...

وليس باللّغـة التي لايفهمهـا إلّا طبقة من الناس، التي اتخـذت لنفسهـا لغة خاصة بها. لها اصطلاحاتها المعنية التي تتعامل بها.

ومن هنـا... فإنّ التعـرف على أسلوب القـرآن في طرح القضـايا العقائدية والاستدلال عليها سواء في مجال الإقناع والتحدي. أو في مجال تربية الناس عليها يقع على رأس الهرم في سلّم الأولويات.

فلا بدّ إذن من بذل الجهد في استكشاف الطريقة القرآنية في ايصال المفهوم القرآني إلى الناس، وربطهم به، وليصبح طاقة جبارة يزخر بها كيان الانسان المسلم، تذل لها الصعاب، وتصنع ماهو أشبه بالمعجزات.

ولعلّ أوّل ملاحظة يمكن تسجيلها في هذا السياق هي: أن القـرآن يعتمـد اسلوب إرجاع الانسان إلى فطرته، ومخاطبة وجدانه، وإثارة ضميره من خلال تحويل الشأن العقائدي إلى شأن حياتي واقعي، يلامس كل حركة الانسان، ويتصل بكل اهتـمامـاتـه الأسـاسية. وليتحول الشأن العقائدي من حالةٍ محضٍ فكـريةٍ وتصـورية ومعادلةٍ رياضية إلى حالة وجدانية وضمـيرية ومن مقتضيات الفـطرة وشؤونها ومن الضرورات الحياتية بالدرجة الأولى... وأمّا بالنسبة إلى:

الأمر الثّاني: هو ما يرتبط بالمضمون، فقد اتضح الأمر فيه ممّا ذكرناه آنفاً حيث إنّ مايهمنا البحث عنه يقع على قسمين:

أحدهما: هو تلك الحقائق والدقائق العالية، التي تهم صنفاً خاصاً من الناس ، يرمي الى التعمّق في البحوث العقائدية، والغور في أعماقها، للوصول إلى الكنوز الخفيّة، والحقائق المكنونة...

وهـذا الصنف من البحـوث ومن البـاحثين، ممّا لايمكن الاستغناء عنه وعنهم بالنسبة لأمة تريد أن تثري فكرها وتؤكد أصالتها، مادام أن لهؤلاء الثلة الدور الرئيسي في توجيه حركة

Page 21

الفكر على مستوى الكوادر الفاعلة، التي تتولى مهمة التوجيه المباشر والفاعل على أرض الواقع في الأمة، فلا بدّ من توفير الامكانات الكافية لهؤلاء ليستمروا في بحوثهم وفي تحقيقاتهم بصورة مرضية فاعلة.

الثاني: هناك معان عقائدية يفترض بالناس كل الناس أن يعيشوها ويعوها ويتفاعلوا معها، لتؤثر من ثم في حياتهم العلمية، وفي كل شؤونهم وحالاتهم.

وهي معانٍ لاتدخل في نطاق اهتمامات الصنف الأول بصورة أساسية، ولا يوليها كبير عناية، مادام أنه قد اتجه في فكره وفي بحوثه إلى نواح لاتلتقي ولاتنسجم معها كثيراً، وهذا القسم هو الذي لازال في مرحلة الصفر، وهو بحاجةٍ ماسّةٍ إلى مزيد من الجهد ومزيد من الوقت من القدرات لإعطائه دفعة إلى الأمام، فانّه الأكثر مساساً بحياة الناس، والأكثر تاثيراً على مصيرهم ومستقبلهم، ومن ثمّ فانّه هو الذي يعنيهم ويهمهم أكثر من أي شيء آخر، ولكي تخرج من نطاق النظرية فاننّا نشير الى مثال تطبيقي قرآني وآخر تاريخي.

مثال تطبيقي قرآني

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، فاننا نجد فيه عشرات بل مئات الشواهد على مانقول ونكتفي هنا بعرض أحدها، وهو التالي:

قال اللّه سبحانه في كتابه الكريم:

﴿قل: من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحرّ تدعونه تضرّعاً وخفيةً، لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين.

قل: اللّه ينجيكم منها ومن كل كرب، ثمّ أنتم تشركون.

قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم، أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض، أنظر كيف نصرّف الآيات لقوم يفقهون﴾[1].

وقال تعالى: **﴿قل أرايتم إن جعل اللّه عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير اللّه يأتيكم بضياءٍ؟ أفلا تسمعون؟**

قل: أرايتم إن جعل اللّه عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير اللّه يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون؟!﴾[2].

فنجد:

١ ـ إنّ هذه الآيات تطلب من الذي توجّه له الخطاب: أن ينظر إلى اسلوبها في معالجة الشأن العقائدي: أنظر كيف نصرف الآيات: ولاشك في أن هذا الطلب إنّما يهدف إلى الحث على اتخاذ ذلك طريقة ومنطلقا في عملنا التربوي في هذا المجال حيث إنّه يريد منّا أن نتعلم كيفية ايصال المفاهيم العقائدية إلى القلوب وكيفية فتح الأبصار والاسماع والعقول عليها.

٢ ـ إنّها قد ربطت الشأن العقائدي بالشأن الحياتي، الذي يهمّ الانسان ويعنيه أكثر من شيء آخر، وقد ذكرتهم بأهمية السكون للانسان وأهمية الضياء له، كما أنّها قد ركزت على تذكير الانسان بانه يعجز عن مواجهة أمور لايملك المعرفة ولا القدرات الكافية التي تمكنه من السيطرة عليها ومواجهتها، وبأهمية الضوابط التي تهيمن على المجتمع الانساني وتفرض عليه التعاون، وتمنعه من التعدي، الأمر الذي لولاه لم يمكنه أن يرسم صورة واضحة لمسيرته في الحياة، ولا لمستقبله ومصيره من الأساس.

٣ ـ إنّ هذه الآيات قد ركّزت على الأمور الثلاثة التالية:

ألف : الفقه والتعقل والفهم: لعلّهم يفقهون.

ب : السمع: أفلا تسمعون؟.

ج : البصر: أفلا تبصرون؟.

وقد ركّزت آيات أخرى على هذه الثلاثة ايضاً، مثل قوله تعالى: **﴿صمّ بكم عمي، فهم لايعقلون﴾**[3].

وقوله تعالى: **﴿لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون﴾**[4].

وما نريد التذكير به هنا هو: أنه تعالى في هذه الآية قد قدّم فقه القلوب على بصر الأعين، وسماع الآذان. وفي ذلك الماح ـ على مايظهر ـ إلى أن ادراك الأمور العقائدية، إنّما هو بالدرجة الأولى من مهمات ووظائف القلوب، التي تفقه الامور إذا تفكرت فيها، حينما تكون من شؤون العقل ومن سنخه.

ولكنّ ادراكها لاينحصر بذلك، فلو أنّ الانسان لم يرد أن يجهد نفسه في التفكير وترتيب القضايا، والانتهاء إلى النتائج بالتأمل العقلي، وفقه القلب فان ثمة وسائل أخرى يمكن بواسطتها أيضاً الوصول إلى تلك الحقائق العقائدية، وذلك مثل السمع والبصر، وغير ذلك من الوسائل التي يمكن بواسطتها اكتساب الأشياء وإيصالها إلى القوة العاقلة لتتصرف فيها،

وتستفيد منهـا في مجال الفكـر والاستنتاج، حيث يكون ثمة ضرورةَ لإثراء الفكر بالعينيات بما لها من وجود عيني في مراحل التحقيق.

مثال تطبيقي تاريخي

وإذا رجعنا إلى التاريخ، فانّنا نجد فيه أيضاً مايفيد في تأييد وتأكيد ذلك حيث إننا حينما نعالج موضوعاً عقائدياً، كموضوع «المعجـزة» مثلاً. فاننا إنما نبحث فيها من جهات محددة، قد لانجـد الفرصة لتجاوز ما إلى غيرها، فنبحث مثلاً هل هي خرق للنظام الكوني أو لا، وهل تختلف عن كرامات الاولياء، ومـايصدرعن بعض المرتاضـين، أو لا تختلف، وغير ذلك من بحـوث يجدها المراجع للكتب الباحثة في هذا الاتجاه ولكننا لانجـدهم يتعرضون للاجابة على أبسط وأول سؤال يرد في موضوع المعجزة، ألا وهو التالي:

لماذا يؤمن البعض بالنّبيّ، من دون أن يطلبوا منه معجزة يظهرها مثل علي وخديجة وأبي طالب، وجعفر، أبي ذر، وغيرهم بل إنّ بعضهم قد آمن به (ص) في اليوم التالي لبعثته، ولكن آخرين لايؤمنون ـ لو آمنوا ـ إلاّ بعد أن يطلبـوا منهم إظهار المعجزات، وقد ضرب قوم موسى الرقم القياسي في هذاالمجال.

أضف إلى ذلك: أنّنا نجد: أن إيمان أولئك الذين يؤمنون بلا طلب المعجزة قد جاء أقوى وأعمق، وأصفى، من ايمان أولئك الذين هم من الفريق الآخر، الذين يكون إيمانهم عبارة عن استسلام ورضوخ، وعجز أمام الأمر الواقع فيما يظهر...

وفي جانب آخر لهذاً السؤال، إنّنا نلاحظ: أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يحارب الخوارج يكثر من الإخبارات الغيبية بصـورة ملفتـة للنـظر، أمّـا في حربي الجمل وصفين وسواهما، فقد كان ذلك منه بنسبة أقل كما يظهر بالمراجعة.

وفي مقام الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الإلماح إلى حقيقة لها دورها في توضيح سبب هذا الاختلاف الظاهر وهي:

أنّه حين تُعمى القلوب وتُجعل في قمقم وترفض التفكير في الحقائق الصافية، وتُصم الآذان عن سماع صوت الحق، وتُعمى الأبصار عن النظر إلى الآيات الباهرة، والحقائق الظاهرة، فلا يبقى مجال لإيصال صدى الحق إلى القلب، والحصول على حالة الإذعـان، والتخـلّي عن موقف المعـانـد والـرافض في خطة المـواجهـة للرسالة الالهية إلاّ بإحداث صدمة قوية بواسطة ماعُرف بـ «المعجزة» من أجل أحداث فجوة، أو فتح نافذة تظل على داخـل الانسان، وتنفذ إلى قلبه، وعقله، ووجدانه فيكون ثمّ الإذعان، والقبول، والتسليم، والنجوع للحق.

وقـد لاتُحـدث تلك الصـدمـة شيئاً، حيث أن قلوبهم قد اصبحت كالحجـارة أو اشد قسوة، فيصبح الايمان ـ والحالة هذه ـ مجرد استسلام ورضوخ، واستثمار لا أكثر.

وممّا تقدّم تتضح الإجابة على موضوع الإخبارات الغيبية لأمـير المؤمنـين (ع) في حربـه للخوارج، فان الناس كانوا حينئذ، يعانون من الجهل الذريع، واتباع الهوى، بعد أن قتل أماثلهم وبقي أراذلهم[٥] وفَقَد عليه السلام، في حربي الجمل وصفـين الخلّص من أصحـابه، الذين كانوا يتلهّف عليهم[٦] حتى لقـد قال عليه السـلام، لأهل العراق، في نهاية حرب صفين، عن الأشتر رحمه اللّه:

«ليتَ فيكم مثله اثنان، ليتَ فيكم مثله واحد»[٧].

كما أنّ النـاس إنّـما يحاربـون اخوانهم وأبناءهم، الذين كانـوايتظاهرون بالعبادة والزهادة مع رفعهم لشعارات براقة وخادعة، من شأنها أن تستخف عقول الناس الذين لم يستفيئوا بنور العلم، كما استخف فرعون قومــه نتيجةً لجهلهم ـ فقلل من وزن عقـولهم، فأطاعوه حتى عبدوه وكما يزيّن الشيطان القبيح للانسان وما يظهره له بصورة الحسن، ويعده ويمنّيه حتى يوقعه فيه، ولو كان لديه آثارة من علم لعرف الزائف من غيره وميز الحسن من القبيح، ولعرف الشعار وخلفيات الشعار ولعرف الحق منه من الباطل.

فكان لابدّ من مواجهة حالة التردّد والشكّ، والصدود عن الحق بأسلوب إحداث الهزة الوجدانية والضميرية، اعتماداً على المنطلقات العامة في مايرتبط بالايمان بالغيب، هذه الصدمات التي ظهرت على شكل اخبارات غيبية يشاهد الناس تحقّقها بأم أعينهم.

ولكن من الواضح أن هذه الصدمات لن يدوم أثرها طويلاً، فلابدّ من ملاحقتها بالتوعية والتثقيف وبث المعرفة في الناس، ليكون ذلك ضمانة لبقاء القناعات وتجذيرها في عقل الانسان وفكره ووجدانه وقد رأينا أنّ بني اسرائيل لم تجف أقدامهم من ماءِ البحـر الـذي مشـوا عليه بصورة اعجازية، حتى قالوا

Page 21

لموسى وقد رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم: اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة. هذا من جهة ومن جهة أُخرى، وهو ايمان عليّ، وجعفر، وخديجة، وأبي طالب، وأبي ذر وأمثال هؤلاء، الذين لايمكن اعتبارهم في مصاف الناس العاديين، بل هم من الطراز الأول في الذكاء والوعي، ودقّة الملاحظة. فانّ ايمان هؤلاء إنّما هو نور الحق والحقيقة الباهر، الذي يشرق في القلب ويشع في كيان الانسان، وفي روحه، وهو أيضاً حقيقة الحياة، تنبعث بكل حيويتها وصفائها، لتغمر وجود الانسان، وتتفاعل مع كل ذرة فيه، قال تعالى:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[٨].

وقال: **﴿يريدون أن يطفئوا نور اللّه بافواههم، ويأبى اللّه إلاّ أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون﴾**[٩].

والآيات التي تؤكّد على معنى الايمان هذا كثيرة جداً.

والقرآن بأساليبه الفطرية والوجدانية، ثم بانتقاله بالشأن العقائدي، من حالة الركود، والتعطيل والجمود، ليصبح أمراً حياتياً وأساسياً، مصيرياً، لابدّ للانسان من أن يوليه أقصى درجات العناية والاهتمام.

إنّ القرآن حين فعل ذلك، فانه يكون قد جعل الأبصار والاسماع، والقلوب، تتفتح لمستقبل ذلك النور وليغمرها بلألائه ويشع عليها منه ما بهر وستأثر منها بما بطن فضلاً عمّا بدا وظهر..

وليكون ذلك سبباً في أن تنبض بالحياة ويغمرها الندى والعطاء، ويعمرها الايمان والهدى.

التربية والتعليم توأمان

وإذا أردنا أن نتحدث عن همومنا ومشاكلنا التي نعيشها فعلاً، فانّنا نجد أنّه رغم السلبيات الكثيرة التي نلاحظها في حوزاتنا الدينية العلمية، في قم المشرفة، وفي النجف وغيرها ورغم أننا نفقد فيها التربية العقائدية، على النحو الذي لمسنا ضرورته فيما سبق من مطالب وهي مستغرقة في بحوثها بالطريقة المعهودة والمألوفة لنا... نعم.. رغم ذلك فانّنا نجد فيها ايجابية مهمة جداً، نهيب بكل الذين هم في موقع المسؤولية أن يعملوا على نقلها إلى سائر المؤسسات العلمية، ألا وهي أنها قد نجحت إلى حدٍ كبير في تربية الانسان في الانسانية إلى جانب منجزاتها على صعيد بناء شخصيته العلمية والثقافية، نجاحها في علم الفقه والتفسير والفلسفة، والمنطق، والاصول وغير ذلك.

فكما أنّها تقدّم للأمة الرجل الفقيه، العالم الفيلسوف والمورِّخ الخ.. فانّها أيضاً تقدّمه إنساناً قد تربّى تربية صالحة، جعلته في مركز يؤهله لأن يكون إمام جماعة أو قاضياً، أو ما إلى ذلك، حيث ساعدته على أن يتحلّى بالصفات التي تجعله الانسان الثقة، العدل، الذي يتحلى بالاخلاق الفاضلة والصفات والمزايا الحميدة، وبالعدالة والتقوى...

وهذا بالذات هو ما نطلبه باصرار شديد من سائر المؤسسات العلمية، والتجمعات والمجتمعات الفكرية والثقافية، وعلى رأسها المدارس العامة والجامعات، ولاسيما مايتصدى منها لتدريس العلوم الانسانية، حيث لابد لهم من أن يولوا إنسانية الانسان عناية خاصة، ليتخرج الطلاب في نهاية الامر عالما وانساناً في وقت واحدٍ، يتحلّى بالميزات الإلهية، وبالكمالات والفضائل على أساس صحيح وسليم فيطبع بها شخصيته وروحه وسلوكه وينطبع به الآخرون أيضاً، وأن لايتركوا الطالب يلتقط خصائصه ومفاهيم من هناك، دونما تمحيص أو تاملٍ...

وليكن النهج الذي رسمناه، هو الرائد في هذا الاتجاه، مادام أنه هو نهج القرآن وهو نهج أصحاب الرسالات، وحملة الأمانة، من الأنبياء وأوصيائهم صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

هيمنة السياسات على الشأن العلمي

وبعد... فانّ ماجرى عليه الطلاب في الجامعات في بعض البلاد وحتى الاسلامية فيها ولاسيما في المراحل الأخيرة من دراستهم، وحينما يطلب منهم تقديم رسالة التخرج هو العمل بطريقة تجميع النصوص على شكل بطاقات ثم ترصيفها وصياغتها بحيث تتوافق مع ذوق الهيئة المشرفة وتوجهاتها، أو تنسجم مع السياسيات والتوجهات الفكرية هذه أو تلك مع الأخذ بنظر الاعتبار ماينشأ عن ذلك من تحكمات لامبرر لها ولا منطلق يساعدها، ولاسيّما اذا كان المطلوب هو خدمة تيّار فكري معين، له اهدافه وطموحاته، ثمّ تحاشي وتجاهل إن لم

Page 21

يكن توهين وتهجين ماعداه، ولكنّهم يعالجون سلبيات موقفهم ذاك بما يفرضونه على الطلاب من قيود وحدود تتناول الشكل والاسلوب، وقضايا جانبية اخرى، وذلك بطريقة قوية وحازمة وقاسية بحيث ينصرف هم الطلاب إليها ولايحرص إلّا عليها، مع أن هذا النحو من العمل لايمكن أن يعتبر انجازاً علمياً، ولاسيّما فيما يرتبط بالعلوم الانسانية، التي تكون ـ عادة ـ مطمح أنظار الطامعين، ومحط ومهوى أفئدة طلاب اللبانات وأصحاب المطامع من سياسيين وغيرهم.

فالمطلوب إذن هو إبعاد العمل والشأن العلمي عن أن يكون خاضعاً لأي اعتبار خارج إطاره العلمي والتربوي السائر باتجاه العمل الانساني الفاضل والنبيل... مهما كان ذلك مخالفاً لسليقة هذا أو لطموحات وأهداف ذاك أو منسجماً مع التيار، أو غير منسجم معه...

العلم في مجال التخطيط والتنفيذ

ونقول هذا... لأنّنا ندرك أنّ الاستفادة من العمل العلمي في مجال التخطيط والتنفيذ ضرورة لابدّ منها، ولامحيص عنها، حتى على مستوى الدولة، اذا كانت تريد أن تقوم بدورها الرائد في هداية الأمة، ودعوتها للوصول إلى مدارج الكمال والسعادة في طريق واضح المعالم نحو مستقبل زاهر وبهيج، ومصير رضي ورغيد...

ولكن من الواضح، أنّه لكي يكون العمل العلمي أساساً صالحاً في مجال التخطيط والتنفيذ فلابدّ له من رصيد قوي على مستوى الهيئات العلمية التي ترعاه وتشرف عليه وتوجهه توجيهاً صحيحاً وسليماً دقيقاً، في مجال الاستنتاج وفي مجال الإبلاغ، وفي مجال العمل والتنفيذ، بعيداً عن أيٍ من المؤثرات التي من شأنها أن تعطّل حركته، او تعرقلها، أو تنحرف بها عن مسارها الطبيعي القديم.

دور البواعث الفردية في الإنجاز العلمي

وأخيراً فانّ العمل العلمي قد بدأ يتخذ منحى مؤسساتياً وجماعياً ونحن وإن كنّا نشجع هذا المنحى، ونعتبره تطوراً ايجابياً إلى حدٍ كبير، ولكننا لاننسى أن من واجبنا التذكير بأنّ من الضروري أن يكون العمل الجماعي ممزوجاً ببواعث فردية أيضاً، لكي يمكن الافادة من طموح الفرد ومن حيويته، ومن خلاقيته ولا أقل من عامل الارتباط الروحي والعاطفي بالعمل، وبانجازه على النحو الأكمل والأفضل.

وبدون ذلك، فانّنا قد نجد أنفسنا في أحيان كثيرة أمام ركام هائل من النصوص، والمعلومات من دون أن تجد لها ما يحركها في مجال الفكر، والمقارنة والاستنتاج، الاّ بمستوى ضعيف وهزيل، وبطريقة غير قادرة على إثراء الفكر وعاجزة عن تحقيق الأهداف الكبرى، التي طالما سعينا إلى تحقيقها، وثمّة مجالات ومناح كثيرة لهذا البحث لانرى أنّنا نملك الفرصة لاثارتها فنحن نكلها إلى الزمن، فلعلّ وعسى، وعسى ولعلّ...

وآخر دعوانا أن الحمدُ للّهِ ربّ العالمين

١٣ شهر رمضان المبارك ١٤١١هـ.ق - ١٣٦٩/١١/٢٨هـ.ش

جعفر مرتضى العاملي

المصادر:

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي.
٣ ـ صفّين، للمنقري.
٤ ـ الفتوح، لابن أعثم.
٥ ـ مصادر نهج البلاغة، لعبد الزهراء الخطيب.
٦ ـ المعيار والموازنة، لأبي عبد الاسكافي.
٧ ـ نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي.

الهوامش:

١ ـ الأنعام ٦٣، ٦٤، ٦٥.
٢ ـ القصص ٧١، ٧٢.
٣ ـ البقرة ١٧١.
٤ ـ الأعراف ١٧٩.
٥ ـ صفّين ص٤٩١، والمعيار والموازنة ص١٦٤، وشرح النهج للمعتزلي ج٢ ص٢١٩.
٦ ـ نهج البلاغة، شرح عبده ج٢ ص١٣٠ ـ ١٣١، ومصادر نهج البلاغة ج٢ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١، وفيه عن الزمخشري في ربيع الأبرار باب التفاضل والتفاوت. وراجع الفتوح لابن أعثم ج٤ ص ١٠٢.
٧ ـ المعيار والموازنة، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
٨ ـ الأنعام ١٢٢.
٩ ـ التوبة ٩.